الفصل الرابع
(١) فى أزمة المثقفين تجاه الإسلام

● « أزمة المثقفين تجاه الإسلام » عنوان لدراسة فكرية قيمة للدكتور محسن عبد الحميد تشتمل على مادة بحثية ثرية فى مجالها وتفيض بالنظر الثاقب فى طرحها، وقد لفتنى عنوان الكتاب منذ صدوره عن دار الصحوة القاهرية سنة (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م) فحرصت على اقتناء نسختى من الكتاب لقراءتها ودراستها والرجوع إليها فى بحث الأزمة وتحليها والمساهمة فى اقتراح العلاج الناجح لها وانشغلت عنه بالسفر والإقامة فى غير حاضرة عربية معلمًا ومتعلمًا إلى أن استحكمت أزمة الثقافة والمثقفين تجاه الإسلام إلى الحد الذى صار الإسلام وثقافته وحضارته معها أقرب إلى المتهم، وبخاصة فى هذا العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى الذى شاهد الحملة الشعواء على الإسلام واتهامه بالإرهاب كما شاهد الظهور الصيهونى واستعلاء القوى المتربصة بالأمة العربية والإسلامية الطامعة فى خيراتها، وقد ازداد هذا التوجه شراسة وجرأة مع سقوط الاتحاد السوفيتى واعتبار الإسلام هو البديل للشيوعية بفعل الحملة الصهيونية وأحلام الاستيطان الإمبراطورى فى فلسطين والأرض العربية والعداء للإسلام.

- وقد لفتت « أزمة الثقافة والمثقفين تجاه الإسلام » الغيورين النابهين من الكاتبين المخلصين والإعلاميين الوطنيين فى مختلف الأقطار العربية والإسلامية على امتداد الجغرافية الإسلامية من المحيط إلى المحيط، وقد أدرك ذلك النفر أن معركتنا مع أعداء الإسلام والأمة على المستوى القُطْري والعربى والإسلامى معركة كونية مع التقدم الكبير فى وسائل الاتصال والفضائيات وأن الأعداء يحاربوننا على كل الجبهات كأننا أمة واحدة متضامنة متحدة بالفعل بالرغم من حالة الشتات التى تعيشها الأمة والتى باتت فيها الأمة كالأيتام على مآدب اللئام أو كالأغنام القاصية فى الليلة الشاتية، واللافت للنظر والمحزن أيضًا أن أعداء الأمة

ينظرون لإمكانيات ومقدرات الأمة العربية وامتدادها على مستوى العالم الإسلامى جميعًا؛ لأنهم يدركون جيدًا من دروس التاريخ أن حالة الشتات والتمزق والإقليمية التى تعيشها الأمة الإسلامية ليست قدرًا حتميًا لا فكاك منه وإنما هى حالة عارضة أو متغيرة ولعل درس العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ - السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م قد وعوه جيدًا كما نطقت به أحداث عقد التسعينات الميلادى الحالى!!.

- ومن المثقفين الكاتبين الذين لفتتهم أزمة الثقافة والمثقفين تجاه الإسلام وخطورة الدرك الذى انحدرت إليه فى هذا الظرف العصيب الأستاذ فهمى هويدى فى مقالته القيمة المنشورة فى صحيفة (الأهرام) القاهرية فى الثامن والعشرين من مارس (١٩٩٥م) وقد هاله أن يرحل الأديب الإسلامى العبقرى الدكتور نجيب الكيلانى إلى رحاب ربه دون أن تشير صحف الوطن المسماة بالقومية والأدبية بكلمة تشير إلى فضل الرجل ومكانته الأدبية ودوره الريادى فى النهضة الثقافية والأدبية المعاصرة والتى تبوأ فيها مكانًا عليّا يطال الكثير من القمم التى أبرزها الإعلام الموجه وأعلى قاماتها وأعطاها أكثر مما تستحق وفرضها على الناس فرضا وألح بذكرها على أذن وعين المستمع والمشاهد حتى تنطبع على ذاكرته المسموعة والمرئية، ولا ينجو من هذا الإلحاح إلا أصحاب النظر الثاقب والعقل الناقد والوعى الراشد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وقليل ما هم!!.

● يقول الأستاذ فهمى هويدى «حين مات الدكتور نجيب الكيلانى الأديب المتميز، ولم تشر إلى النبأ صحافتنا القومية والأدبية بكلمة، فإن ذلك بدا شاهدًا على أن ثمة شيئًا (غلطًا) فى حياتنا الثقافية، إذ لا يتصور المرء فى ظل أية ظروف طبيعية أن يُغيِّب الموت أديبًا راسخ القدم مثله، له أكثر من ثمانين قصة ورواية ونال جوائز التقدير فى مصر والعالم العربى والإسلامى وظهرت بعض رواياته فى السينما (ليل وقضبان) وقررت الدولة فى مصر بعضًا آخر على

ثانويات الستينات، قصة (الطريق الطويل) لا يتصور المرء أن تكون صفحة الرجل على ذلك النحو من الثراء والإشراق، ثم يتم تجاهل نبأ وفاته بذلك الشكل المدهش الذى حدث طيلة الأسابيع الثلاثة الماضية، ولم يكن ذلك من قبيل الاحتشام والزهد فى الكلام، لأننا نرى كل حين سرادقات إعلامية تنصب ومرثيات وبكائيات تدبج ونائحين وندابات يتوزعون على مختلف قنوات الإرسال حزنًا على راحلين آخرين من الأدباء والفنانين دونه شأنا بكثير، الأمر الذى يحتاج إلى تحليل وتفسير (الأهرام فى ٢٨ / ٣ / ١٩٩٥).

– وهكذا عرض الأستاذ هويدى لأزمة الثقافة والمثقفين فى إشارة ذكية للتدليل على معدن تلكم الشرذمة من المثقفين والمستوى الذى انحدرت إليه مصداقيتهم، الأمر الذى ولج منه للحديث عن «خيانة المثقفين» كما عرض لها كتاب جوليان عن أزمة المحاكمة الظالمة التى تعرض لها الضابط اليهودى الفرنسى ألفريد دريفوس بتهمة التخابر مع الألمان. برغم براءته منها إلا أن التعصب القومى الفرنسى ضد النازية أعمى المثقفين الفرنسيين الذين رفضوا الدفاع عنه.

– وفى سبيله للتعريف بالمثقف الحق والكاتب الشريف والمبدع الحر أورد تعريفات للمثقف منها تعريف الفيلسوف الإيطالى أنطونيو جراشى وهو من أهم تعريفات الثقافة الذى يعرف المثقف بأنه «إنسان تجاوز ذاته واختار أن يخاطب المجتمع معبراً عن همه أو وجدانه أو حلمه، هو كائن «مشع بالضرورة» ويدعم توجهه فى تعريف المثقف بتعريف آخر للدكتور إدوارد سعيد الذى يؤكد الجانب المعرفى والانتماء لثقافة معينة ومحيط بشرى معين وضرورة استقلاله عن كل مراكز التأثير على فكره الحر ورؤيته الذاتية، وعرج لتعريف الكلمة الحية والكاتب الحق كما عرض لذلك الدكتور زكى نجيب محمود والشاعر نزار قبانى والذى يعرف الكتابة بأنها عمل انقلابى «يستهدف تغيير هندسة الكون وهندسة الإنسان» كما يواصل كاتبنا عرض رأى نزار فى الكتابة فيقول «الكتابة ليست

فعل امتثال ولا فعل رضوخ ولا فعل تنازل ولكنها فعل انقضاض على كل بشاعات هذا العالم» والكاتب الحقيقى هو الكاتب الواقف دائمًا على الخطوط الأمامية».

– ويعرض كاتبنا الكريم فى مقالته لآراء الفقهاء فى علاقة العلماء والمفكرين بذوى السلطان كما عرضها الإمام أحمد ابن حنبل والغزالى وغيرهما ويدلل على حرص العلماء العاملين على كل ما يحفظ مصداقيتهم واستغناءهم عن أبواب السلاطين حرصًا على استقلال رأيهم وإخلاصهم وتبليغهم أمانة العلم والنصح لله ورسوله وللمؤمنين حكامًا ومحكومين، ويضرب أمثلة للعلماء الذين تعرضوا للتمحيص والابتلاء لإصرارهم على استقلال رأيهم وفكرهم بعيداً عن سيف المعز وذهبه كما حدث مع أبى حنيفة النعمان والإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ العز بن عبد السلام وغيرهم من علماء ومفكرى الأمة ومثقفيها على مدار الأيام والأزمان.

– وفى ختام مقالته فى أزمة المثقفين يعرض الأستاذ فهمى هويدى للمشهد الثقافى المعاصر ومكان ومكانة المثقف وموقعه فيه بين الاستقطاب والتزييف والاستقلال والحرص على أصالة الرأى والانحياز إلى المصالح العليا للأمة ومرجعيتها الحضارية فى مواجهة المثقفين المستقطبين فى جانب السلطة أو المستلبين فى ثقافة العولمة والتبعية مقابل ثقافة الأمة وخياراتها وصمودها وليخلص فى وصف المشهد والحالة الثقافية المعاصرة إلى القول عن الاستقطاب والتحزب الثقافى فيقول: «الاستقطاب هو العنصر الثالث فى أزمة المشهد الثقافى وأبرز أشكاله هو ما نراه الآن من انقسام المثقفين إلى معسكرين أحدهما علمانى والآخر إسلامى، الأمر الذى صبغ الحوار الثقافى المفترض بصبغة أيدلوجية قائمة على الصراع والنفى المتبادل، وكانت النتيجة أن غاب الحوار والنقد الحر وأصبح النقض هو البديل عنهما».

● وكما أن مقالة الأستاذ هويدى انتهت إلى إبراز مأساوية الحالة الثقافية

وعبثيتها نرى كتاب الدكتور محسن عبد الحميد يعرض لأزمة المثقفين تجاه الإسلام وصفا وتعليلا لهذه الحالة وعرضا لمظاهره وانتهاء بوصف العلاج التفصيلى مزودا بزاد واسع من المعرفة ورسوخ قدم فى البحث والدرس والتحليل واستخلاص النتائج السليمة وفق المقدمات المنطقية بعقل وقلب مفتوحين وإخلاص للأمة وأبنائها ودعوة صادقة للتواصل والحوار والتفاهم المبنى على إخلاص النوايا والتجرد للحق والحقيقة والتماس الأعذار والتحلى بأدب الأبرار والأخيار «ومن عرف كثيرا غفر كثيرا»!!.

– والكتاب فى أصله محاضرة مرتجلة ألقاها الدكتور محسن عبد الحميد «فى الموسم الثقافى لعام (١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤ م) فى كلية الآداب – بمكناس» ثم ألقاها فى العام نفسه بكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز فى جدة كما ألقاها للمرة الثالثة فى قسم الدراسات العليا بكلية الشريعة فى جامعة الإمام ابن سعود الإسلامية بالرياض، وقد لاقت نجاحا وقبولا واستحسانا مما حفز أستاذنا للتوسع فى الخطوط العامة للمحاضرة، ففصل مجملها، فى كتابه القيم عن أزمة المثقفين تجاه الإسلام، وقد عرض للأزمة ببيان الانفصام الكبير بين نفر من مثقفينا فى القرن الأخير وبين الإسلام كموجه ومنطلق ومرجعية عليا لعقائد وأفكار وثقافة المسلمين ومنهاج شامل فى ضبط أفعالهم وتنظيم حياتهم على عكس ما كانت عليه حياتهم قبل نحو قرن من الزمان فى عصور الضعف والانحطاط أو فى عصور النهضة والقوة والازدهار مع اختلاف المذاهب وتباين الاتجاهات حيث «كان كل فريق حريصا على أن يصوغ مواقفه وآراءه فى ضوء تلك الأصول والقواعد الإسلامية ولم يكن فى ذلك شك أو نقاش»[١]، «حتى الفلسفات المنحرفة والآراء الباطنية الملحدة والتيارات الصوفية الاتحادية الحلولية الإشراكية الضالة، لم تكن تستطيع الظهور والتقدم فى مظاهر الحياة المختلفة دون الاعتماد على تأويل الآيات والأحاديث، كى تسند مواقفها وآراءها واتجاهاتها»[٢].

---

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام – دار الصحوة بالقاهرة – الطبعة الأولى (١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤ م) ص ٦

(٢) السابق ص ٦ .

(٢) - فى أزمة المثقفين تجاه الإسلام
مثقفون ومثقفون ! !

- وليس من شك أن ثمة نوعين من المثقفين المستلبين ثقافيا وحضاريا الأول منهما « أضله الله على علم » فهم بتقييم الأستاذ فهى هويدى : الذين يكرهون أمتهم وتاريخهم (الأهرام ١٨ /٨/ ١٩٩٨) وهم بتقييم حكيم الأمة وشاعر الإسلام الدكتور إقبال « أشباه الرجال ولا رجال » ينكرون أنفسهم ويؤمنون بغيرهم؛ يبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأديارا ... »[١] وهذا الفريق من المثقفين فى أغلبهم من فلول الماركسيين أو العلمانيين الماديين ممن تربوا على مائدة الإلحاد وخلايا التنظيمات الشيوعية والجمعيات الماسونية والذين اشتدت نقمتهم على الإسلام بعد خيبة أملهم فى الشيوعية وسقوط دولتها المركزية فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتى البائد، وعلت أصواتهم مع عصر الاستعلاء الصهيونى وهذا الصنف من المثقفين الماديين وَبَالٌ على الأمة وشر مستطير فى حياتها وقد أحسن بعض الحكام العرب والمسلمين فى منعهم من تولى الوظائف الإعلامية والتثقيفية التى تصوغ أو تؤثر فى الرأى العام، أما النوع الثانى من المثقفين المستلبين فهو الذى انبهر بثقافة الآخر واعتنق أفكار وفلسفات الغازى الغالب وثقافة القوى مفتونا بتقدمه ورقيه وقوته آملا أن يحقق لأمته التقدم والخلاص وفق ما يراه سبيلاً للنهضة على هذا الدرب أوذاك دون أن يقف على ما لدى أمته من مقومات القوة والنهضة والتقدم فى إطار مذهبيتها الإسلامية ومنهاجها الربانى، ولعل هذا الفريق الذى يعنيه الدكتور محسن عبد الحميد فى كتابه هذا والذى يدعوه إلى الحوار ويُبدى أسفه عليه لأن من بين رجالات هذا الفريق نفر يضنُّ المخلصون بهم أن يبقوا فى الفريق المناوئ لمنهاج

---

(١) انظر كتاب (مع إقبال - شاعر الوحدة الإسلامية) لصاحب المقالة - مكتبة النور - بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٩٨٦م - ص ٣٩ .

النهضة الإسلامى وبناء الحضارة والتقدم وفق المذهبية الإسلامية ومرجعيتها العليا. يقول الدكتور محسن عبد الحميد وأقول معه «إننى أعترف هنا بأننى ينتابنى حزن عميق عندما أقرأ لكثير من الماركسيين المسلمين الأذكياء لأننى أجد عندهم طاقات فكرية كبيرة، لو صرفوها لخدمة الأهداف الإنسانية النبيلة التى يدعون إليها فى إطار الإسلام الحق، إذن لنهضتْ الأمة، وتوحدت الجهود والمنطلقات، وانتهى الطغيان وألحقنا جميعا بعوامل الخمول والجمود التى عطلت مسيرتنا التاريخية هزيمة كبيرة» (١).

– وقد عَدَّل عدد من المثقفين الشرفاء الكثير من مواقفهم وتوجيهاتهم بعد الدرس والمراجعة والتمحيص فجدُّوا فى أعين المخلصين وعلت منزلتهم فى الأمة وكان لهم فى نفوس الشعوب وقلوبها مكان ومكانة وفى طليعة هؤلاء الكبار المفكر الإسلامى خالد محمد خالد والأساتذة عادل حسين ومنير شفيق والفيلسوف رجاء جارودى وغيرهم عشرات بل مئات، وهذا شأن أصحاب النفوس الكبيرة والعقول النيّرة والشخصيات العبقرية.

– يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «إن جارودى عندما غير مسار حياته، وملأ الثغرات الخطيرة فى منهجه باعتناقه الإسلام، لم يتراجع عن إيمانه بالحرية وحبه للإنسانية ورفضه للعنصرية ولم يتخل عن عشقه للعدل الاجتماعى وانحيازه الكامل للمسحوقين فى المجتمعات البشرية، ولكنه تراجع وتخلى فقط عن التفسير الإلحادى الماركسى للتاريخ ثم عن المنهج الخاطئ، منهج التلفيق والدمج (٢)» ويضيف الأستاذ الكريم مناشدته للماركسيين العرب العودة إلى حضن الإسلام كما فعل جارودى وإخوة لهم من قبل فيقول «فجدير بالماركسيين الذين ولدوا فى أسر مسلمة أن يعتنقوا الإسلام من جديد ولا أشك من خلال

---

(١) أزمة المثقفين تجاه الإسلام ص ٩٤.

رحم الله الأستاذ خالد محمد خالد الذى رجع عن أفكاره التى ضمنها كتاب (من هنا نبدأ) فى مرحلة النضج الفكرى بكتابه عن الدولة فى الإسلام ليؤكد فيه أن الإسلام دين ودولة مخالفا بذلك آراءه فى كتابه الأول.

(٢) السابق ص ٩٤.

دراستى المتواضعة للإسلام، أنهم إن فعلوا ذلك فلن يحتاجوا للتنازل عن آمالهم وآلامهم ونضالهم فى سبيل إنقاذ مجتمعاتهم والإنسانية جميعا، بل يزدادون عند ذلك قوة إذ سيضيفون إلى قوتهم الفكرية البشرية قوة الروح الإلهية التى ستوقفهم على أرضية الإسلام المشترك من حيث هو دين الله الخالد وعقيدة الأمة وأملها فى إنقاذها من التلكؤ الحضارى الذى وجدت نفسها فيه » [1].

● ومما يُؤسف له ويَحزن له المخلصون من أبناء هذه الأمة أن نجد من بيننا هذا الفريق من المستلبين المحسوبين على مثقفينا الموجودين فى مناخ الفتن الداخلية فى بعض بلداننا العربية والإسلامية يصيدون فى الماء العكر ويلبسون ثوب الناصحين كما (برز الثعلب يوماً – فى ثياب الواعظينا، فمشى فى الأرض يهدى ويسب الماكرينا) بتعبير أمير الشعراء .

– ويقدمون النصح الذى يؤجج أوار الفتن ويطيلها ويشعل الحروب الأهلية مما ينسجم مع مذهبية هذا الصنف من الثقافة المادية الماركسية التى تؤجج نار الحقد الطبقى وتثير الفتن والصراع بين أفراد الأمة الواحدة، وهم فى تلك المناخات أشبه بالدب الذى يقتل صاحبه !!.

– والعجيب أن تجد هذا النوع من الموتورين وقد استخدمتهم واستكتبتهم بعض القوى المهيمنة فى كبرى الصحف للتشويش على مشروع الأمة الحضارى » فى مواجهة قوى الاستعمار والاستكبار الجديد فى الهيمنة والاحتواء على مقدارت الأمم والحيلولة دون وحدتها ونهضتها لتبقى أمة الإسلام ممزقة مستلبة فيما تتوحد الأمم الأخرى على ضعف ما بينها من صلات وكثرة ما بين شعوبها من مواريث الحروب والأحقاد وتعدد اللغات كما هو واضح فى الوحدة الأوربية فما أحرانا نحن المسلمين أن نتآلف ونتضامن ونتوحد تحت راية العربية والإسلام لنقيم ما أعوج من حالنا وما ذهب من قوتنا جراء الفرقة والتشرذم، ولدينا كل عوامل النهضة والقوة والازدهار، وما أحوج العالم اليوم لجهود أمة التوحيد فى

---

(١) السابق ص ٩٤ .

الارتقاء بحضارته ودعمها على طريق العدل والحرية وتحقيق إنسانية الإنسان بأكمل المبادئ وأكرم الأخلاق وأنبل المثل ليعم الخير والسلام على ظهر هذه البسيطة ولينجو كوكبنا من الشرور التى تتربص به جراء سيادة قيم الثقافة المادية الاستهلاكية وعبادة القوة وعولمة السيد الأوربى والأمريكى بقيادة مراكز التحكم الصهيونية فى المال والإعلام والقرار فى قوى الهيمنة العالمية فضلاً عن كراهيتها المتأصلة للإسلام ولنبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه، برغم ما بسطه الإسلام على اليهود فى مختلف مراحل التاريخ من جناح الحماية والرحمة وإنقاذهم من اضطهاد الدول المسيحية فى أسبانيا وأوربا ومختلف بقاع العالم، وها هم أولاء يردون الجميل للعرب والمسلمين باحتلال أرضهم ونهب خيراتهم والتآمر على وجودهم وثقافتهم واستخدام أحط الوسائل فى تأليب الأحزاب وتوجيه الطعنات إلى الشعوب والأمة الإسلامية وتشويه العقيدة والشريعة والسيرة النبوية ومحاولات الإساءة إلى القرآن الكريم وبث الفرقة بين الإسلام وإشعال نار الفتن والحروب بين أبناء الأمة الإسلامية وبين شعوب الإسلام وغيرها من الشعوب.

* * *

(٣) - فى أسباب أزمة المثقفين تجاه الإسلام

● وفى تشخيص لأزمة المثقفين تجاه الإسلام ذهب الدكتور محسن عبد الحميد فى الفصل الأول من الباب الأول لعرض العوامل الداخلية فى أسباب الأزمة ومنها ما أصاب الروح الإسلامية والمذهبية الإسلامية بتعبيره بالخمول والجمود الذى تمثل فى ابتعاد الأمة عن تلك الروح الموجهة لنشاط الأمة فى مجالات الحياة المختلفة وانعكس ذلك على علم الكلام الذى أدى دوره فى مناخ ثقافى وحضارى معين « ولم يدرك علماءالإسلام فى القرون الأخيرة طبيعة الظروف التى ظهر فيها علم الكلام القديم وظلوا ينظرون إلى موضوعاته ومصطلحاته نظرة تقديس » (١).

- وكذلك الحال فى الفقه والتفسير والعلوم والتصوف الذى بدأ فى حضن الإسلام تربية إيمانية للنفس وتزكيتها على مقام الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) والسعى لحمل النفس على طاعة الله والاستعلاء على عبادة الشيطان والنفس والهوى وإلزامها سلوك الأنبياء والصالحين وإصلاح الحياة بمنهج الله بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوقوف أمام المظالم وإخلاص النصح لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم، ليستحيل التصوف فى العصور المتأخرة إلى طقوس ورموز وفلسفات باطلة وموجة اعتلاها الدجالون والجاهلون والمنحرفون والطامعون مما يزرى بكرامة الإنسان المسلم ويشوه مبادئ الإسلام وانتهى الأمر بهؤلاء الأدعياء أن « غدوا أداة بأيدى الظالمين والمستغلين من حكام المسلمين والمستعمرين، يؤيدونهم فى مخالفتهم لشريعة الله ويباركون لهم إذلال المسلمين واستغلالهم ويقاومون من يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من العلماء الناصحين والصلحاء والزاهدين والمشايخ الصادقين » (٢).

● لا جرم أن هذا السبب من العوامل الداخلية فى أزمة المثقفين من أبناء

---

(١) السابق ص ٩ .

(٢) السابق: ص ١٦ .

الأمة تجاه الإسلام بالذات هو ما أفرز المردة من شياطين الشيوعية الساقطة وألد أعداء المشروع الحضارى الإسلامى فى النهضة والإصلاح، الأمر الذى حفز كاتبا كبيرا مسكونا بالهم العام للأمة وأوطانها ومشروع نهضتها وإصلاحها وهو الأستاذ فهمى هويدى إلى القول «أفهم أن يكون للبعض حساسية أو خصومه» إزاء الدين لسبب أو لآخر، لكن الذى أستغربه حقا أن يكره المرء تاريخه وذاته، وأن يعبر فى كل مناسبة عن بغضه ونفوره من قومه، وعن الحسرة والأسى لأنه لا يستطيع أن يغير جلده ، الأمر الذى يدعونا إلى التساؤل: لماذا يكره هؤلاء أمتهم إلى ذلك الحد؛ يكرهوننا لا بأس ولا يضير، لكن يكرهون ذاتهم وأمتهم. لماذا ؟!! [1].

– وقد سطر الكاتب الكبير بيراعة المثقب جملة من مقالاته فى صحيفة (الأهرام) فى الشأن الثقافى وغرائبه وقد دفعه لكتابه بعض تلك المقالات نموذج من المستخدمين فى التشويش وتشويه مشروع النهضة الإسلامية والصحوة الإسلامية والتى تفزع أعداء الإسلام والقوى المتربصة بيقظة الأمة وقوتها وازدهارها، وكتابات مثل هذا النموذج وشرذمته المحتواة فى بعض الصحف الكبرى نماذج من الأدب القبيح الذى يفيض بالمغالطة والاستعلاء الجاهل والجرأة على ثوابت الأمة فى الغزل الصريح وغير الصريح فى مشروع التنوير الماركسى أو الأوربى والصهيونى، ولذا لا تجد فى كتابتهم أى تناول للمقدسات الإسلامية المهددة والأخطار الماثلة للمشروع الصهيونى وطموحاته بَلْهَ أن يكونوا من دعاة السلام الصهيونى والاستيطان الصهيو – صليبى لفلسطين والبلاد المحيطة بها فى قلب الوطن العربى والعالم الإسلامى.

– وفى تفسير تلك الحالة لذلك الأنموذج المستلب الكاره لأمته وحضارتها وثقافتها يقدم الدكتور محسن عبد الحميد التصوف المنحرف وأدعياءه الذين ارتموا فى أحضان القوى المهيمنة المعادية للإسلام من الغزاة

---

(١) «الأهرام» الذين يكرهون أمتهم وتاريخهم – فى – ٢٥/٨/١٩٩٨ م.

المستكبرين ورجالهم المتعاونين معهم والمؤتمرين بأمرهم فى ديار الإسلام، الأمر الذى قدم الإسلام وثقافته لأبنائه المتطلعين إلى التقدم والنهضة وأعدائه المتخصصين فى أبشع صورة وفى المقابل لبست حضارة الغرب الأوربى ثياب الأناقة والقوة والتقدم.

– وفى هذا يقول الدكتور محسن عبد الحميد مع الإشارة إلى المنحرفين بالتصوف المتاجرين بالدين على الجهلاء والعامة لصالح الأعداء فى الداخل والخارج « وهكذا تحول هؤلاء مع بداية احتكاكنا بالحضارة الغربية إلى أسوأ صورة للإسلام يُبغّضونه إلى الجيل الجديد من خلال طغيانهم واستغلالهم وسلوكهم المنحرف ذلك لأن كثيراً من أبناء الجيل الجديد لما رأوا فى هؤلاء فى واقعهم وجهلهم وسوء تمثيلهم للإسلام تمردوا عليه وابتعدوا عنه ورأوه بعيداً عن آمالهم وآلامهم وصراعات حياتهم وواقعهم الإنسانى السئ، ولم ينجُ من هذه الكارثة حتى أولاد الطواغيت الذين عبدهم أتباعهم من دون الله، فرأينا بأم أعيينا الملاحدة أو الفساق الذين كانوا يقضون الليالى الحمراء فى حانات المدن الكبيرة، وانضم إليهم الكثير منهم إلى الجماعات المادية والأحزاب العلمانية وعادوا الإسلام الذى استغله آباؤهم، وبسببه عاشوا فى الحياة الدنيوية الفاجرة »[1].

● كما عرض كاتبنا المفكر الدكتور محسن عبد الحميد لمظاهر الجمود والركود العقلى الذى أصاب الفقه والتفسير والعلوم والحضارة والعمران الذى انتهى بالأمة إلى التخلف والجهل فقال « ثم تنام حضارياً لتجد نفسها بعد قرون أمام الحضارة الغربية الحديثة بقضاياها الإنسانية وروحها العلمية ومخترعاتها الصناعية وتنظيماتها العمرانية، فيقع جمع كبير من متعلمى الأمة فى الفخ فيظنون أنهم أمام عالم جديد ومنهج جيد وثقافة جديدة، تتجلى فيها القوة والإنجازات الهائلة فيقعون مصروعين مبهورين يشعرون بعقدة نقص عظيم

---

(١) السابق ص ١٦ .

ويعبرون عن هزيمتهم الداخلية باندفاع شديد نحو الحضارة الغربية، فيستسلمون إليها فى خشوع دون وقفة تأمل أو مراجعة حساب».

– ثم ينتقل بنا مفكرنا الإسلامى فى الفصل الثانى من الباب الأول ليحلل الواقع الإسلامى الذى كرس حالة الضعف والخمود والجمود مما ساهم فى تعميق الأزمة الثقافية تجاه الإسلام وأفرز المثقفين المستلبين من العلمانيين والماديين والملحدين، ويعرض فى هذا المجال واقع الحكام والإدارة السياسية ثم يعرض لواقع العلماء ثم واقع العامة، وكيف آلت أحوال تلك الفئات إلى المناخ الذى أضعف الأمة وقدمها لقمة سائغة للقوى الناهضة المتقدمة وآل بها للاستسلام للحضارة الغازية بجيوشها وأطماعها وتقدمها العلمى والحضارى مما فتن بعض أبناء الأمة ومثقفيها للارتماء فى أحضان الثقافة الغازية وانبهارهم بها إلى حد الافتتان والدعوة للسير على خطاها فى حلوها ومرها وخيرها وشرها وما يستحب منها وما يستكره وما يحمد فيها وما يعاب، كما عبرَّ عن ذلك الدكتور طه حسين فى بعض كتبه.

– ويفرد الدكتور محسن عبد الحميد فى تشخيصه لأسباب الأزمة الثقافية تجاه الإسلام فصله الثالث من الباب الأول من كتابه (أزمة المثقفين تجاه الإسلام) للعوامل الخارجية ومنها الاستشراق والمؤسسات الثقافية الاستعمارية والاحتكاك الطبيعى بالحضارة الغربية وغير ذلك، ويخصص الباب الثانى من الكتاب لمظاهر الأزمة، ويجعل فصله الأول عن الجهل، جهل تلك الفئة من المثقفين بالنظرة الإسلامية للكون والإنسان والحياة، وجهلهم بعظمة التشريع الإسلامى وثرائه وجهلهم بقيم الإسلام ومثله وأخلاقه وجهلهم بعظمة الحضارة الإسلامية وعطائها العبقرى وارتقاء بالإنسان والعلوم والفنون، كما جهلوا قدر الرسول والرسالة ولم يقتربوا من شخص الرسول الكريم ﷺ ويتعرفوا سيرته وعظمته وأثره فى الحياة والوجود وتعلق قلوب ملايين الملايين من البشر به كنَبىّ ورسول وإنسان كامل، الأمر الذى انتهى إليه كل دارس منصف من الباحثين المنصفين بشهادات الأوربيين

الغربيين أنفسهم مثل برناردشو والشاعر الألمانى جوته والباحث الأمريكيى مايكل هارت الذى ألف كتابه عن أعظم مائة شخصية فى التاريخ وهو كتاب (الخالدون مائة أعظمهم محمد) ﷺ ويضع النبى ﷺ على رأس أعظم مائة شخصية أثرت فى تاريخ البشرية واتسم تأثيرها بالاستمرار والعمق والشمول، كما يقول الدكتور محسن عبد الحميد عن جهل هؤلاء المثقفين المستلبين والمهزومين حضاريًا أمام ثقافة الغازى المستكبر إنهم: « جهلوا أسباب تقدم المسلمين فى التاريخ وأسباب تأخرهم، لم يعرفوا شيئا عن القوى التى حاربتهم والمؤامرات التى نسجت عبر التاريخ للقضاء عليهم » ويمضى فيقول « أى أن مَنْ تحولوا إلى من نسميهم « المثقفين » عندما واجهوا الغرب وحضارته وعلمه وأدبه وفنه وواقعه لم يواجهوه إلا وعقولهم خاوية، وقلوبهم فارغة، ونفوسهم مجردة عن معانى الأصالة والعزة والأنفة والشخصية المستقلة؛ ولذلك فإنهم لم يواجهوا الحضارة الحاضرة مواجهة مدركة فاحصة مراجعة مقومة » (١).

● وفى الفصل الثانى يعرض الدكتور محسن عبد الحميد للنظرة التراثية إلى الإسلام والتى ينطق بها جيش ثقافة الردة الحضارية وجنود الغزو الثقافى من أعضاء حزب نابليون والحلف (الصهيو - أمريكى) ومؤداها أن الإسلام تراث نهض بالعرب فى حقبة تاريخية معينة وأن النبى بطل قومى عربى نهض بأمته وحررها من ظلم الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، « ولقد ركز هذه الفكرة فى نفوس طائفة من المثقفين المسلمين نصارى العرب، لا سيما خريجو مدرسة الإساليات الأجنبية وأبرزها الجامعة الأمريكية فى بيروت، قَصْدَ الوصول إلى هدم الرسالة الإسلامية، من حيث هى الرسالة السماوية وربطها بمرحلة تاريخية معينة فى حياة العرب انتهت ومضت وتحولت إلى تراث قومى للأمة العربية مسلمين ونصارى معًا » (٢).

- وتلك النظرة التراثية للإسلام ورسالته وحضارته التى قادها نصارى الشام من خريجى الجامعة الأمريكية والمدارس اليسوعية هى التى قادت الدعوة القومية

---

(١) السابق ص ٥٠ .

(٢) السابق ص ٥٧ .

العربية بمفهومها العلمانى فى مقابل الدعوة الطورانية (القومية التركية) وهما الدعوتان اللتان تقف وراءهما القوى الاستعمارية والصهيونية والتى تمخضتا عن ضرب الأتراك بالعرب والعرب بالأتراك وهزيمة الأمتين العربية والتركية واستعمارهما وغرس الكيان السرطانى الأوربى الصهيونى فى جسم الأمة العربية وقلب العالم الإسلامى ليهدد وحدتها ونهضتها وتقدمها وازدهارها ورسالتها فى الحياة والمساهمة فى بناء الحضارة العالمية على نهج قيم الثقافة الإسلامية والإسلام العظيم، ويذكر الدكتور محسن عبد الحميد فى كتابه بداية التوجه القومى وكيف طوره دعاة القومية من نصارى الشام إلى الوجهة المعادية للإسلام فيذكر ما قاله الدكتور ألبرت حورانى فى كتابه (الفكر العربى فى عصر النهضة) : « فقد أدت محاولة صياغة مبادئ المجتمع الإسلامى صياغة جديدة إلى فكرة مجتمع قومى علمانى يكون فيه الإسلام مقبولاً ومحترمًا لا بل مساعداً على شد الروابط العاطفية بين المواطنين دون أن يكون مصدراً لقواعد الشريعة والسياسة إلا أن الكتاب المسيحين لم يكتفوا بهذا القدر، بل دفعوا الفكرة إلى اتجاه مختلف » (١).

– ويعرض كاتبنا المفكر لأبرز المجلات التى قادت التوجه القومى العلمى من نصارى لبنان والمدارس اليسوعية والجامعة الأمريكية ومنها مجلة « الجنان » (١٨٨٠ – ١٨٨٦م) أصدرها بطرس البستانى فى لبنان ومجلة (المقتطف) التى أنشأها (١٨٧٦) معلمان نصرانيان فى بيروت وفى الكلية البروستانتية السورية هما ويعقوب صروف وفارس نمر اللذين انتقلا إلى القاهرة (١٨٨٥م) ومجلة (الهلال) التى أصدرها ١٨٩٢ جورجى زيدان الذى تلقى علومه فى الكلية البروتستانتية لسوريه، ويذكر الدكتور محسن عبد الحميد من أبرز الذين نشروا تلك الأفكار فرنسيس مراشى (١٨٣٦ – ١٨٧٣ م) وكان طبيبًا له قصة رمزية بعنوان (غاية الحق) أودع فيها أفكاره العلمانية.

٢ – شبل شميل (١٨٥٠ – ١٩١٧) وهو كاتب نصرانى سورى تخرج من

---

(١) السابق ص ١٣ .

المدرسة البروستانتينية الإنجيلية، قضى حياته فى الدعوة إلى ثقافة علمانية تبنى على العلوم الطبيعية فقط ويبعد عنها الإسلام نهائياً وتفصل الدولة عنه.

٣ - وفرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢) الذى أشرف على تحرير عدد من المجلات العربية التى استغلها لنشر أفكاره العلمانية الأوربية المحاربة للدين وكتابه (ابن رشد) تضمن دعوته الصريحة للعلمانية الأوربية الداعية لفصل الدين عن العلم والدين عن الدولة وطعن فى الإسلام مما حمل الإمام محمد عبده للرد عليه فى كتابه «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية»، ومن جنود تلك الهجمة الاستعمارية التى استترت بستار الفكر والنهضة والتقدم الكاتب المارونى خليل الغانم ونجيب عازورى الكاثوليكى السورى وقسطنطين زريق المسيحى الأرثوذكسى وأدمون رباط المسيحى الكاثوليكى الحلبى، وكان من نتاج دعوة هؤلاء تكريس مبدأ العلمانية بالمفهوم الأوربى ومحاربه الدعوة الإسلامية، يقول الدكتور محسن عبد الحميد: «وهكذا توصل كتاب ومفكرو النصارى عبر قنوات موصولة بالمؤسسات الصليبية السرية والعلنية، ومن خلال توجيهات السفارات الأجنبية فى البلاد الإسلامية إلى ما أرادوا وهدفوا إليهم من نظريتهم التراثية هذه للإسلام، إذ تبنى هذا الاتجاه مثقفون مسلمون وجمعيات ثقافية وأحزاب سياسية ودول قامت بتحويل النظرية إلى واقع فى التربية والتعليم والإعلام والمؤسسات الثقافية المتنوعة فتربى تيار كبير فى أجيالنا الصاعدة. فى الثلاثين سنة الأخيرة من حياتنا الحاضرة على هذا الاتجاه التراثى فى النظر إلى الإسلام».

- وهكذا حققت الصليبية الصهيونية ما لم تفلح الحملات العسكرية فى العصور الوسيطة والحديثة فى تحقيقه وبلوغه فى أمة العرب والمسلمين دون ضرب ولا حرب ونجحت وصية القديس لويس التاسع بعد هزيمته فى المنصورة بمصر بعد حملته الصليبية الفاشلة ودعوته لاستخدام الكلمة بدلاً من السيف حتى لا يثير ثائرة الشعوب الإسلامية ويبلغ فيها ما لا يقوى على بلوغه بالقوة المسلحة.

(٤) - فى علاج أزمة المثقفين المستلبين

- ولكن بعد حركة اليقظة الوطنية الإسلامية والكفاح فى سبيل الاستقلال والحرية والتنمية الحضارية للشعوب الإسلامية خلال القرن الرابع عشر الهجرى وعَبْرَ القرن العشرين تهافتت الكثير من القيم والأفكار الغازية والنظريات المادية واستوعبت حركة اليقظة العقلية الإسلامية والدعوة إلى التنمية المستقلة والمشروع الحضارى الإسلامى للنهوض بالأوطان والأمة العربية والإسلامية الكثير من شباب الأمة ورجالاتها فى مختلف المجالات مما قوض الفكر المادى ووجه أقوى الضربات لرموزه وأحلامه وطموحاته فى بلادنا وأوطاننا العربية والإسلامية، الأمر الذى أفقد أعداء الإسلام والقوى المتربصه للأمه الرشد فصاروا يتخبطون كحاطب ليل ويرمون رجالات المشروع الإسلامى بالحجارة ولم تعد تلك القوى تتجمل فى حربها ضد رموز الوعى الحضارة الإسلامىّ فى الإعلام والجامعة والنقابات وفى نسيج الشعوب الإسلامية المتعطشة لدينها المحبة لنبيها وثقافتها والتى لا يمكن سياستها والتقدم بها واقتحام المخاطر والتحديات إلا بالتفافها وتأييدها فى ظل الإسلام الذى هو حصن الأمة الحصين الذى لا تتحقق الانتصارات والتغلب على أعتى التحديات إلا تحت رايته المرفوعة المرفرفة بالتوحيد والحق والقوة والحرية.

- وهذا ما عرض له بصورة إجرائية الدكتور محسن عبد الحميد فى علاجه لمشكلة الأزمة الثقافية لبعض مثقفينا المستلبين بعدما تناول بعض تجليات أزمة المثقفين وتمثلها فى النظرة التراثية للإسلام والتلفيق والإلحاد فى فصول تالية من الباب الثانى، ويأتى علاج الأزمة الثقافية دعوة وشرح لإعادة النظر فى العلوم الإسلامية فى الفصل الأول من الباب الثالث وأسلمة العلوم الإنسانية فى الباب الثانى حتى تُقَدَّم النظريات الفلسفية والتربوية والنفسية والاجتماعية فى إطار نقدى وفى سياقاتها العقيدية والتاريخية، لا أن تقدم أفكار ماركس ودور كايم

ورسو وفرويد وغيرهم كأنها مسلمات وحقائق يقينية، وفى الفصل الثالث من هذا الباب يعرض كاتبنا المفكر لواقع المسلمين ليلفتنا إلى أهمية وعى الشعوب ودورها البناء فى تقويم الإدارة والنصح لأولى الأمر مما يترتب عليه انسجام وعى الولاة والرعية، فلا يطغى طرف على آخر بل يتعاونان فى النهضة بالأمة وتقدمها وانتصارها فى معارك الدعوة والفكر والتنمية والبناء، وهذا ما تم فى عصر الراشدين والولاة الصالحين المنتصرين عبر التاريخ، ولذا نرى أستاذنا يتساءل فيقول: «هل يمكن أن يحدث كل هذا، ويعود المجتمع الإسلامى مجتمعًا موحداً ربانيًا تعاونيًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى؟! ويجيب فيقول «أقول: نعم يمكن ذلك إذا عرف المسلمون كيف يبدأون العلاج؟» (١).

– ويرى كاتبنا المفكر أن علاج النهضة بواقع المسلمين ممكن بالتربية والوعى ولا بد أن يبدأ العلاج من القاعدة؛ لأن: «البشر غير الواعين وغير المدركين الذين لا تربطهم عقيدة ولا مبدأ موحد ولا يشعرون بآدميتهم هم الذين يصنعون الطغاة عبر التاريخ الإنسانى» ويمضى فيقول: «إن الطغاة لا يولدون من بطون أمهاتهم طغاة وجبابرة» ويوضح ذلك فيقول: «كان من المستحيل أن يرشح أبو سفيان نفسه فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة رسول الله ﷺ» (٢).

– وتتابع أفكار الباحث الكبير فى اقتراح وسائل العلاج فى مجال الاستفادة من الاستشراق لتجنب سلبياته وأغراضه الخبيثة والاستفادة بإمكاناته وإيجابياته وكذلك الحال مع قيم الثقافة الغربية وعطائها المفيد الذى يحول بيننا وبينه حيث أوجب علينا الإسلام الاستفادة من كل نافع مفيد من العلوم والأفكار من شتى أرجاء الأرض وجعل الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى بها؛ لأنه سيد الكون وشاهد على الناس ورائدهم إلى طريق الحق والخير والجمال فى الدنيا ودليلهم إلى طريق الفوز والنجاة فى الآخرة؛ ولذا فهو أولى بكل جميل

---

(١) السابق ص ١٢٤.

(٢) السابق ص ١٢٥.

وجليل فى هذا الكون لتحلو الحياة بنوره وإيمانه وعلمه وريادته الرشيدة ويؤكد على ضرورة الإصلاح التربوى من خلال التعليم ومقررات التربية وضرورة انطلاق الفسلفة التربوية من قيم المجتمع ومذهبيته الإسلامية ومشروعيته العليا مع الانفتاح على المفيد النافع من أساليب الأمم الأخرى وثقافاتها ما لم يتعارض مع مذهبنا التربوى الذى تُبنى عليه فلسفتنا التربوية، وقد عرض الرجل لآرائه فى الإصلاح التعليمى فى واقع التربية والتعليم فى مختلف المراحل التعليمية وما ينبغى أن يتوفر للعملية التعليمية فيها من قيم وغايات ووسائل، كما عَرَّجَ على إصلاح هيئات الدعوة والشئون الإسلامية ووقف أمام وزارات الثقافة والإعلام ودورها اللازم فى الدعوة للمشروع الحضارى للأمة ومواجهة الاختراق الثقافى وفرض ثقافة الآخر القوى الغالب تحت أى ظرف من الظروف واقترح أشكالاً من المواد الإعلامية المذاعة والمرئية والمكتوبة والممثلة للنهوض بالمادة الإعلامية والثقافية عن طريق معالجة أزمة المثقفين والافتتان بالثقافات الغازية ببريق الحضارة المادية وقيمها الاستهلاكية ومضامينها الإباحية الشريرة.

– وبعد فما أحوجنا إلى وقفة نلم بها شعثنا ونوحد فيها جهودنا ونحشد بها طاقاتنا ونتملى فيها معالم الحسن وطاقات الأمل فى أمتنا ليضع رجالات الأمة شيبا وشبانا أيديهم المتشابكة على مناط القوة فى هذه الأمة فى حوار خلاق وبناء لتوحيد الصفوف ومواجهة الأخطار لأن الأمة باتت مع الأخطار المحدقة عرضة للزوال، فإما نكون أو لا نكون، والأمر كما قال الكاتب القدير الأستاذ فهمى هويدى لم يعد إسلاميا وعلمانيا وإنما صار التمييز بين وطنى وغير وطنى !!.

● ويبقى أن ننبه إلى هذا الجهد العبقرى الذى بذله المفكر الإسلامى الدكتور محسن عبد الحميد فى دارسته القيمة هذه عن أمة المثقفين المستلبين المحسوبين على أمتهم الإسلامية، ونشكر للرجل هذا التناول المخلص للأزمة تشخيصا ووصفا وعلاجا، مما ينم عن إدراك واسع للقضية التى تصدى لها باقتدار ومهارة فى أسلوب مشرف وبيان ناصع وتناول بديع.

– وللرجل فيما قبل هذه الدراسة المنشورة فى كتاب عن دار الصحوة فى القاهرة فى طبعتها الأولى سنة (١٤٠٥ هـ – الموافق ١٩٨٤ م) مؤلفات كثيرة فضلا عن رسائل وبحوث ومشكلات متنوعة فى الفكر الإسلامى الحديث، منشورة ضمن « السلسلة البيضاء » والمجلات الإسلامية فى العالم الإسلامى؛ ومن آثاره ومؤلفاته :–

١ – حقيقة البابية والبهائية المنشورة طبعته الرابعة فى بغداد ١٤٠٠ هـ .

٢ – الألوسى مفسرا وهو أطروحته (للماجستير) المنشور فى بغداد (١٣٨٩ هـ) .

٣ – الرازى مفسرا وهو أطروحته (للدكتوراه) نشر بغداد (١٣٩٤ هـ) .

٤ – دراسات فى أصول تفسير القرآن المنشورة طبعتها الثانية فى الدار البيضاء سنة (١٤٠٤ هـ) .

٥ – نظرات فى الاقتصاد الإسلامى المنشور فى كتيب فى بغداد (١٣٩٩ هـ) .

٦ – جمال الدين الأفغانى المصلح المفترى عليه (بيروت ١٤٠٣ هـ) .

٧ – منهاج التغيير الاجتماعى فى الإسلام (المنشور فى بيروت ١٤٠٣ هـ) .

٨ – المذهبية الإسلامية والتغيير الحضارى (المنشور فى الدوحة ١٤٠٤ هـ) .

– وبعد فما أحرانا أن نمد أيدينا لمصافحة أبناء أمتنا على طريق الكلمة السواء بعيدا عن سوء الظن وتبادل الاتهامات حتى لا نجعل لخصوم أمتنا ونهضتنا مكانا بيننا ونرى فريقا منا يلقون إليهم بالمودة يبتغون عندهم العزة .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨]

صدق الله العظيم